

فكرة الحبّ والفناء في الخطاب الفلسفي العربي علي حرب أنموذجاً

د. علاء سنقوفة

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة الجزائر(2)

ملخص باللغة الأجنبية

The article exposed to the mystical language when some Arabs Sufis , such as Ibn Arabi and Rabi'a , focuses on the war through his book (Love and yard) to love the language of the Arabs Sufis Properties, and here traces the ranks say they have spiritual transcendence and expressed by the . language of poetry best expression

Took the Sufis of love and a way to gain access to god, they have expressed their words and their conditions on this meaning in their understanding of love

ملخص باللغة العربية :

يتعرض المقال إلى اللغة الصوفية من خلال بعض المتصوفة العرب كابن عربي ورابعة العدوية ، انطلاقاً من كتاب علي حرب (الحبّ والفناء) ، الذي يتعرض فيه إلى التجربة الصوفية في الحبّ ، يتخذ الصوفيون من اللغة أداة لتصوير الحياة والعالم ، وهو الأمر الذي بدا في الشعر الصوفي على وجه الخصوص ، يعتقد علي حرب من خلال تحليله لمتون الحب الصوفي أنّ شعراء الصوفية توصلوا إلى معنى إنساني للدين ، انطلاقاً من علاقة الحبّ التي جعلوها طريقاً لإدراك الله والوجود .

يعتبر الفيلسوف العربي المعاصر علي حرب من بين الأسماء الفلسفية المجددة في البحث في أنواع مختلفة من المعرفة العقلية والعرفانية ، وشكّلت بعض أعماله مجالاً خصباً للدراسات ذات المناحي المختلفة ، وهذه الورقة البحثية محاولة للتعرف على منهجية مقارنة النص الصوفي على ضوء الرؤية الفلسفية التي ينتهجها علي حرب في بعض كتبه الهامة. وتظهر قيمة القراءة الفلسفية التي يقدمها علي حرب للتصوّف من حيث مسعاها إلى إدخال التصوّف عاملاً أساسياً في مجابهة نزعة الرأسملة التي تجتاح المجتمع المعاصر وما يجابهه العالم الإسلامي من عنف فظيع ، ومن هنا تتحوّل بعض المفاهيم مثل الحب والفناء إلى آلية معاصرة في فهم الذات ونقدها في الوقت ذاته ..

ينطلق الفيلسوف علي حرب من خطاب التصوّف ، عبر التفكيك والفهم وإعادة التركيب ، بحثاً عن العناصر المضيئة الممكنة في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية ، ولفهم بعض الإشكاليات الفكرية المعقدة في راهن العالم العربي ومنها إشكاليات : الهوية ، العقل والنقل ، اللوغوس والوحي ، العنف والاعتقاد وغير ذلك مما له علاقة بالحاضر وهكذا ، فإنّ الممارسة الفكرية لدى علي حرب تتحوّل إلى أداة حقيقية للإجابة عن بعض الأسئلة الإشكالية المستعصية .

لا تخلو جلّ كتب علي حرب من محاوره لخطاب التصوّف ، ففي كتابه " الإنسان الأدنى -أمراض الدين وأعطال الحداثة " (1) يستحضر مجموعة من مقولات المتصوفة المسلمين من أجل التأريخ لمفهوم الإنسان في الثقافة العربية وبالمقابل يستعيد بعض مقولات الفلاسفة الغربيين الذين أعلنوا عن "موت الإنسان" عندهم ، ويسعى حثيثاً للمقارنة بين الأقاويل المختلفة بغية الوصول إلى معقولية التصوّف ، أي الجانب المنير منه الذي يجب أن ينظر إليه من زاوية إيجابية لا سلبية ، كما فعل الفكر الغربي الذي ألغى كلّ ما لا يعقل فأوجد نفسه في مأزق "تغيب الإنسان" . يرى علي حرب ، على العكس من ذلك ، أنّه يجب إقامة علاقة جديدة مع النصوص وعدم إلغاء التراث الصوفي ، وهو ينبّه في هذا السياق

إلى ضرورة قراءته قراءة نقدية فاحصة ، على اعتبار أن التصوّف سعى إلى تأليه الإنسان ، في مقابل الثقافة الغربية المادية التي سعت إلى أنسنة الإله وتجريده من أية قيمة روحية ممكنة لدى الإنسان المعاصر .

يتوقّف علي حرب على ثنائية التوحّد والاختلاف في فهم بعض المتصوّفة لمفهوم الله وخاصةً عند محي الدين بن عربي ، ناظراً إلى هذه الثنائية من منظور أنها فكرة جيّدة ، يمكن استثمارها في مجال فهم اتّجاهات الخطاب الديني الرّاهن وتصوراته عن الله والنصوص. ومهما يكن فإنّ مفكّرنا يلجّ على ضرورة "إعادة ابتكار أدوار ومعانٍ جديدة للدين كما كان أو مورس في المبتدى .." (2) وفي كتابه الآخر الموسوم باسم : "التأويل والحقيقة -قراءات تأويلية في الثقافة العربية" (3) يرى أنّ النصّ في الثقافة العربية قام على مجموعة من العناصر المؤسّسة ، وهي عناصر يسهم فيها النصّ الصوّفي بقسط وافر وهي : اللغة والتأويل وترتبط اللغة بـ: الاستعارة والكناية والتلويح والتعريض والإيهام ، فيما يعتبر التأويل آلية أساسية في الفهم والتصور ، من هذه الرّؤية يعتبر التصوّف خطاباً أساسياً في تفكير علي حرب ، كونه آلية لقراءة الواقع الفكري الرّاهن وأداة لفهم الإنسان المسلم وتحولات الخطابات ونهجاً لفهم أعطابه والتحدّيات التي تواجهه في سنوات العولمة والرقمنة .

وبعيداً عن المقولات الفلسفية الكبرى التي يسبح فيها فكر علي حرب الفلسفي والإيديولوجي المنخرط في حركية المجتمع العربي والعالمي وما يواجهه من مفارقات في مختلف جوانب حياته الدنيوية والآخروية ، فإنّ كتابه : " الحبّ والفناء - المرأة / السكينة/العداوة" (4) لهو مؤلّف يعكس هذا الاهتمام بالفكر الصوفي ومدى قدرته على معالجة قضايا الإنسان العربي المعاصر .

تتحوّل التجربة الصوفية إلى حقل معرفيّ لعرض قضايا حسّاسة لم تستطع الشريعة كنصوص قائمة على الأمر والنهي معالجتها، ليس لنقص فيها بل

لغياب إمكانية استيعابها وتقبلها عملياً في الوعي الفردي والجماعي للإنسان وفي هذا السياق، يتأسس خطابُ الكتاب على مقولتين هامتين عند المتصوفة وهما : الحبّ والفناء .

يقسم علي حرب كتابه إلى قسمين :

القسم الأول عنوانه : مقالة في المرأة : المسكن والمعتك وعالج فيه قضايا متعلقة بمحور الموضوع عبر مجموعة من الموضوعات المرتبطة ببعضها البعض : اللطف والأنس، الفردوس الضائع، أنوار الوجود، مسكن الرجل، امرأة الرجل، خلاف الرجل، عدو الرجل، تبع الرجل، تكامل الرجل والمرأة. لينتهي بما يشبه تحويل المفاهيم وترتيبها، كما يتعرّض في هذا القسم إلى ظاهرة التعدّد أو الرّغبة في تعدّد الزوجات لدى الرجل محاولاً فهمها انطلاقاً من مجموعة من الأفكار ذات الطابع التأملي الصوفي متوقفاً على سيرة رابعة العدوية (سيرة نسائية).

أما القسم الثاني من الكتاب فعنوانه : خطاب الحبّ عند العرب. يستعرض فيه جملةً من آراء الفلاسفة والمتصوفة في ماهية الحبّ ويتوقّف على بعض العلامات المؤسّسة له ومنها : لذّة الخطاب. المناسبة. الجمال. المعرفة. اللذّة، الفناء ويختتم الكتاب بـ "سيرة الحب". (5)

يرى علي حرب أنّ الفناء والحبّ هما مصدران مختلفان للمعرفة وأداتان لفهم الإنسان ومن هنا تكمن أهمية الخطاب الصوفي. يقول : " الحب كتجربة هو مصدر للمعرفة بقدر ماهو علاقة بالحقيقة، وآية ذلك أنّ الذي ينخرط في تجربة الحبّ ويلعب لعبة العشق قد يتعدّى الانشغال بما يؤثّر في محبوبه من المحاسن والمزايا، لكي يهتمّ بمعنى الحب وحقيقته، فالمعاناة تفتح باب السؤال على المعنى والسؤال عن معنى الحب وحقيقته قد يفضي إلى السؤال عن معنى المعنى، أي عن ماهية الحقيقة نفسها". (6)

نسقيًا، بدا الكتابُ محاطًا بمجموعةٍ من العتبات والافتتاحيات التي تعطي إشارات واضحةً عن طبيعة الخطاب التفكيكي الذي يقوم به علي حرب لمقولتي الحب والفناء ، إذ نجدُ كلَّ مقالةٍ مصدرةً بمقولة فلسفية تمهّد لما سيفضي إليه الخطاب.

ففي المقالة الأولى التي خصّصها للحديث عن المرأة في علاقتها بالرجل ، جامعًا فيها بين الفكر النظري الاستدلالي وبين الطابع الوجداني الذوقي وهي — كما يقول — "أقوال في المرأة جذرها نبويّ عرفاني ومنطقها فلسفي برهاني " (7) نجد مقولة أبي حامد الغزالي: " كل معروف يدخل في سلطة العارف واستيلائه دخولًا ما " ويشرح سبب الحديث في الموضوع إلى كون : " أكثر المتحدّثين عن المرأة وحقوقها والساعين إلى تحريرها من سيطرة الرجل كانوا حتى الآن رجالاً ، أو نساء هنّ صدى للرجال ، إلّا فيما ندر وهذا يكفي ، بذاته ، للحكم على محاولاتهم بالبطلان .ذلك أنهم ، بأقوالهم عن المرأة وفيها ، إنّما يفصحون عن وجودهم ، وينبئون بأحوالهم ويعبرون عن إرادة قولهم . فخطابهم خطابُ الرجل عن المرأة ، لا خطاب المرأة بالذات .إنّهُ خطاب المرأة موضوعه ومحطّ رؤيته ومعرفته .لكنّ موضوع الخطاب يدخل ، لا محالة ، في سلطة واضع الخطاب ، والمعروف يستولي عليه العارف استيلاءً ما . ومن يراد له أن يتحرر ليس كمن يتحرّر بذاته " (8) لتتواصل فيما بعد العتبات: محمد علي شمس الدين: " أنحني ألف عام لأصغي إليك " (9)

أنسي الحاج : " ما من امرأة أجمل من الرغبة في امرأة.وما من جنّة أشهى من حلمي بالجنّة " (10) وأدونيس : " الليل يزيّن جسدها وجسدها يزيّن الليل " (11) ومحي الدين بن عربي : " فاجتمعوا لمعانٍ وافترقا لمعانٍ " (12) وهكذا ، أما العلامة الأخرى فتجلّت في الطبيعة التركيبية واللفظية للعناوين التي تمتع من لغة الصوفية مثل أنوار الوجود ، الحب ..

وعلى كلٍّ، فإنَّ ما قدَّمه علي حرب في الصفحات من الكتاب لا يعدو مجموعةً من التصورات عن العلاقة الممكنة بين الرجل والمرأة وهي إضاءة لفهم الإنسان كما يقول وتقنيد بعض الآراء التقليدية التي أنتجها الخطابان السلفي التقليدي و الحداثي العلماني.

مفهوم الحب :

ينبري في بحثٍ مستقلٍّ ، للحديث عن تجربة رابعة العدوية في الحب والعشق ، محاولاً التعبير عن المكانة التي احتلّها الحب الصوفي في تجربتها الشخصية . يرى أنَّ الإيروسية تشكّل إحدى العلامات المؤسّسة للحديث عن الحب عند المرأة لأنّها مصدرُ الغواية وموضع الفتنة ومحرك الهوى وكان ذلك سبباً لهبوط الإنسان من جنّة الفردوس إلى جحيم الأرض ، فالهوى يهوى بالإنسان كما يقول علماء الأخلاق .

يرى أنَّ رابعة اتّجهت إلى الزّهد وهو ناتجٌ من فرط الحبّ ورابعة ما زهدت في الدنيا إلّا من فرط حبّها لها وشدة هيامها بها ، فهي فنيت عن حبّها من وجه ، لتبقى فيه من وجهٍ آخر وطلّقت هواها على مستوى لتستعيده على مستوى آخر وهو دأب الصوفي : يفنى عن شيء ليبقى في شيء آخر . بل هو يهوى الفناء من فرط تمسّكه بالبقاء ومسوّغ الحديث عن الحبّ ككون الحبّ حبّاً سواء أكان موضوعه المحبوب أم الله لأنّه جنونٌ حتّى ولو اختلف المعشوق .

من أولى علامات تجربة رابعة العدوية هو الانقلاب الحاسم الذي قسّم حياتها قسمين قائمين على الضد والنفي فقد عاشت في بداية حياتها ماجنةً فاجرة ، مستلّمة للشهوات وتكسب قوتها من الحواسّ والأبدان ولكنّها في القسم الثاني من عمرها حرّمت على نفسها اللذائذ ودخلت في حياة الزّهد والفقر والتعفّف واقتاتت بقوت القلوب والأرواح ، تحوّلت من عشق الخلق إلى عشق الله حتّى كانت تقول : " يا شهواني اطلب شهوانية مثلك . أيّ شيء في رأيت من آلة الشهوة ؟" (13) .

يعتبر علي حرب حالة رابعة العدوية حالة عادية، تحدث كثيرا لأنّ نفس الإنسان قائمة على التعارض ، فمثلما يتحوّل الماكن إلى زاهد قد يحدث العكس فيتحوّل الزاهد إلى ماكن ولكنّ الهدف من هذا التحليل لا يقف على معرفة الأسباب أو الصدمات التي أدّت برابعة إلى الزهد في الحياة والإعراض عن الشهوات بقدر ما يكمن في محاولة التعرّف على دلالات العشق الإلهي .

وفي هذا السياق ، فإنّ العشق لا يمكن أن يكون إلّا بالاستغراق في المعشوق روحاً. وهو ما عبّرت عنه رابعة العدوية بمصطلح الفناء ويقتضي ذلك اتّحادهما معاً في مثل قولها :

وتخلّلت مسلك الروح منّي وبه سمّي الخليل خليلاً
فإذا ما نطقتُ كنتُ حديثي وإذا ما سكّنتُ كنتُ الغليلاً
والبيتان شبيهان بما قاله ابن الرومي :

يا لك من نفس ليس يشفي غليلها سوى أن يرى الروحين يمتزجان
وهذا يدلّ على أنّ اللذة الجسدية ناقصة دوماً ولا تكتمل البتّة، ولا يمكن أن يقتنع الحبيب بما قد يناله من حبيبه حتى يصل إلى درجة "كشف الحُجب" وهو ما عبّرت عنه رابعة العدوية بقولها :

أحبّك حبّين: حبّ الهوى وحبّاً لأنّك أهل لذاكا
فأما الذي هو حبّ الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا
وتدل بعض شواهد الصوفية على استحالة الرؤية الكلية للذات الإلهية في حال الكشف ومما جاء في ذلك قول القائل :

شوقي إليك مجاوز وصفي وظهور وجدي دونما أخفي
يا ليت جسمي كلّهُ حدقٌ حتّى أراك وليته يكفي
يستدلّ الصوفي على الغائب بالشاهد ، أي تتحوّل الأشياء المختلفة إلى رموز أو علامات سوربالية لا قيمة لها في ذاتها وهو ما تجلّى في فكرة رابعة العدوية عن

الله . فقد نقل عنها أنها كانت بسبيلها إلى الحج ، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء ، فقالت : لا أريد الكعبة ، بل ربّ الكعبة ، أما الكعبة فماذا أفعل بها؟ ولم تشأ أن تنظر إليها " (14) فالكعبة ، مثلها مثل الأشياء الأخرى ، اكتسبت في النظرة الصوفية معنى مفارقا ، أي أنها تحوّلت إلى رموز يُستدلُّ بها على الغائب وهو المحبوب .

يستند الحبّ الصوفي إلى إستراتيجية النّفي من أجل إثبات الهوى ، وهذا نراه واضحا في تجربة رابعة العدوية التي تنفي هوى الدنيا ظاهرياً لكي تعلنه جهاراً بقوة وعنف في مستوى آخر. يقول علي حرب في هذا السياق : "...وهي بانقلابها على نفسها إنّما استبدلت هوى بآخر، نعني هوى الخلق بهوى الحقّ. وكانت متطرّفة في هوى الله ، على قدر ما كانت متطرّفة في هوى الخلق وفي كلا الحالين كانت تهوى هواها . لقد تمكّن منها ذلك الهوى ولم يمكنها التحرّر منه ... " (15) .

يتجلّى الهوى في لحظة الإخفاء أي أنّ الهوى يتبادل الدور ، فهو درجة مستوية واحدة ، ترفض اللغة الهوى الإنسي ولكنّها ، إذ تحتفي بالهوى اللاهوتي ، إنّما هي متعلّقة بلحظات جنون مستوية في العنف والاندفاع . ومن الملاحظات التليدة في هذا ، أنّ علاقة المتصوّف الزاهد بالله دائماً مشوبة بالقلق والخوف ولذلك يظلّ يخشى " السُّقوط " ولهذا كانت رابعة العدوية تقول : " استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه " (16) وكانت تقول أيضا : " لا يكون حزني أن أكون محزونة بل حزني أنّي ما كنت محزونة " (17) وهكذا فإنّ الخشية من هوى النّفس وميلانها عن " الحبّ " الصوفي الحقيقي هو ما كان المتصوّفة يخشونه ويحذرونه ، إنّ الإحساس بالسقوط - على حد تعبير علي حرب - يظلّ يلزم الصّوفي على الدّوام ومن هنا نستطيع تفهّم مشاعر الحيرة والقلق والاشتباه التي تستبدّ بأهل التّصوّف عموما .

تشكّل هذه الميزة علامةً واضحةً في الحبّ الصوفيّ ، فهو عنيفٌ من جهة ولكنّه ارتياحي وظنّي ، مفارقٌ للعالم من جهة ولكنّه لا يستطيع نسيانها ، يتحرّى مجاهدًا من أجل أن لا يسقط في شركها ولذلك يجعل الصدق أحد أهمّ معالم حبه للمحبيب ، وكذلك يمكن تفسير الشعور بعدم الرضى ، فالصوفيّ : " لا يرضى عن رضاه ، ويزهد بزهد ، ويستغفر الله عن استغفاره ذاته ، ويحزن لكونه لم يحزن " (18).

يكشف الكاتب خاصية أخرى في علاقة رابعة العدوية بمحبوبها ، تتجلى في علاقة أحادية الجانب ، قائمة على حبّ من طرف واحد وهو ما سماه عبد الرحمان بن محمد الأنصاري "العشق" وسمّاه بعضهم "حبّ الحبّ" (19) في هذا السياق ، يمكن فهم عبارات رابعة العدوية التي كانت تقول : " وعزّتك لو طردتني عن بابك ما برحتُ عنك لِمَا وقع في قلبي من محبّتك " (20) وهكذا ، فإنّ المحبّ الحقيقيّ : " من يستعذب تعذيب محبوبه ويفرح بجميع ما يصدر عنه ولو كان صداً وهجراً ، أو عذاباً ومذلةً " (21)

ولا شكّ في أنّ الحبّ على هذه الشاكلة ، أعذب الحبّ وأكثره إشراقاً وأبلغه أثراً وأجدره ذكراً ، وهو ما بقي من أخبار المحبّين أمثال : مجنون ليلى ومجنون إلسا (لويس أراغون) أو مجنون غالا (بول إلوار) وعشق رابعة هو من نوع الحبّ غير المتبادل ذلك لأنّ الله لا يعشق إلّا ذاته أمّا الشوق فلا يمكن نسبته إليه . (22)

الصفة الأخرى في الحبّ الصوفيّ لدى رابعة العدوية ، وربّما عند أغلب المتصوّفة ، هي الاستغراق والاستهلاك ، أي فناء المحبّ في المحبوب أو استهلاك المحبوب للمحبّ بمحو صفاته وطمس هويّته ، ولقد أحبّت رابعة حبّها حتّى شغلها ذلك عن كلّ موجود وحبّ ولو كان حبّ الرسول (ص) ، كما شغلها عن كلّ كره ، ولو كان كره الشيطان .

فقد كانت تقول فيما روي عنها : " لكنّ حبّي لله تعالى قد ملأ قلبي إلى حدّ لم يجعل ثمّة مكانا لمحبة غيره أو كراهيته ". (23) ومن هذه العلاقة تنتج فكرة الإخلاص في الحبّ لأنّه مرتبط بـ: " نسيان وفناء في حضرة المحبوب " (24) وقد ينسي هذا الإخلاص الصوفي في جسده على نحو ما روى الحسن البصري : " بقيت يوما وليلة عند رابعة نتحدث عن الطريق وأسرار الحقّ بحرارة بلغت حدّا نسينا معه أنّي رجل وأنّها امرأة . فلما فرغنا من الحديث شعرت أنّني لم أكن إلا فقيرا ، بينما هي كانت غنيّة في الإخلاص ". (25)

يقدّم علي حرب مسحاّ واستقصاء لتعاريف الحبّ في الخطاب الصوفي العربي ، يلاحظ مبدئيا أنّ الحب الصوفي لا يمكن تعريفه ، أي أنّه لا يدخل في باب العلم ، إذ يتفق الصوفية وغيرهم على أنّ المحبة لا يحدها حدّ ، فلا اللفظ يتّسع لمعناها ، ولا التصرّوّر بقادر على الفوز بحقيقتها ، وسبب ذلك أنّ المحبة حال : " والحال لا يدرك بالحدّ والدليل ، بل بالذوق ، كما رأى ابن عربي " (26) وما يعزّز هذا الاتجاه في التعريف أن المتصوفة يعتمدون ، في استيفاء العلم والمعرفة بالشيء ، بالرياضة والمجاهدة وليس بالبحث والنظر ولا تقوم على ترتيب الأدلّة وإنتاج النتائج بل هي " ذوق وكشف " ومن هنا يتساءل علي حرب عن طريقة " علمية " لفهم الحبّ الصوفي ، وفضلا عن ذلك فإنّ التّجربة الصوفية لا يمكن أن تستوعبها اللغة أو تعبّر عنها بطريقة دالّة ، فهي -أي اللغة - عاجزة عن الإحاطة بالتّجربة ويعبّر عن هذا علي حرب بقوله : " فالنطق ، بوصفه نحوّا ومنطقا في آن ، قاصر عن استيعاب تجربة الحبّ . لأنّه لا تفي بتلك التّجربة العبارات الدّالة ، ولا تدرك بالأدوات النظرية . بل كلّ واحد يعبّر عنها على حسب ذوقه منها ، وينطق بها بمقدار حاله . وما يدرك بالبرهان ليس سوى أسباب المحبة وشروطها أو لوازمها وآثارها . وأما المحبة بالذات فلا تبلغ بلفظ ولا يكتتها تصوّر . ولهذا

يحترز العارفون عن ترجمة مواجيدهم وأذواقهم بالعبارات والأقوال ، مخافة الخطأ فالمحبة سُكراً لا يمكن أن يخبر عنه" (27)

يتساءل ، علي حرب ، في هذا السياق عن إمكانية أن يكون خطاب المحبة خطاباً ضد التنوير ؟ يرى أنَّ الخطاب الصوفي خطابٌ مدهش وأثَّه لا يجب النظر إليه كذلك ، لأثَّه في الأصل خطاب وجودي بالمعنى الهايدغري للكلمة ، فهو دعوة إلى عدم "نسيان" الإنسان

ولهذا يقترح أن نتأوَّله ونعيد فهمه ، على أساس أثَّه نوع من المعرفة القائمة على الحدش والانكشاف والفكر ، كما يقول ، في وجه من وجوهه شرح الحدوس وإيضاح الكشوفات ، أي أثَّه إيضاح لمعنى الوجود . (28)

يتعرَّض علي حرب إلى قضايا ذات صلة بالمحبة الصوفية وهي: المناسبة والجمال وأقسامه والمعرفة واللذة ليقف من جديد على مفهوم الفناء الصوفي وهي العناصر الأساسية التي تشكِّل العلاقة بين المحبِّ والمحبيب وتعطي لصورة هذه العلاقة طبيعتها الروحية العالية . يشكِّل التناسب أساسَ العلاقة وهو في الأصل التشابه والتشاكل والشبيه يحبُّ الشبيه ، فيتعرَّف إلى نفسه في شبيهه ، ويرى فيه صورته ، فينجذب إليه ويألف معه ، ويتوحدُّ به . فالتناسب هو تشابه وتعارف يفضيان إلى المحبة .

وقد قسَّم بعضهم المناسبة إلى أقسام بحسب جنسها : جوهرية أو عرضية ، خفية أو جليلة ، فطرية أو مكتسبة ، ما يجوز كشفه وما لا يجوز كشفه ، خاصة وعامة . المناسبة الجوهرية هي تآلف الأنواع بأنواعها والأصناف بأصنافها وهي قاعدة يتأسس عليها الوجود كآه فكل حيوان مثلاً يحنُّ إلى نوعه ، كحنين الحمام إلى الحمام والغراب إلى الغراب والوحشي إلى الوحشي ...وهكذا وتجعل الصوفية أعلى المناسبات بين الإنسان وآله هي زوال الاثنينية حتى يتماهى

الواحد في الآخر ويتحدّ به ، فالاتّحاد هو قرب المناسبة على نحو ما قال بعضهم
(29).

ونظر المتصوّفة إلى الجمال وعرفّوه على أنّه مطلق ومقيّد ، ويعرف الجمال المطلق
بأنه النور الإلهي القدسي وهو لله وحده دون غيره لا يشاركه فيه موجود آخر
وهو بعيد عن الاكتناه أو الوصف لأنّه خاص بالذات الإلهية كما أنّه لا يعقل بل
يدرك بآثاره وتجليّاته . أما الجمال المقيد فينقسم إلى قسمين : كلّيّ وجزئيّ
والأول نور قدسي فائض عن النور الالهي يسري في كل الموجودات مهما كانت
طبيعتها وكان إشراقه الأول في عالم الملكوت وعالم الملائكة والذوات
الروحانية ثم على العالم الإنساني ثم على عالم الحيوان والنبات ثم عالم الأجسام
على اختلافها وطريقة التعرف عليه بنور العقل لا بالعقل وحده وهو من وظائف
العارف .

ويعد مصطلح الفناء من المصطلحات التي كثرت تعاريفه ولكن يجب لنقترب
منه على الوجه الأكمل أن نربطه بخصوصيات العلاقة القائمة بين العاشق
والمعشوق ، فهو حلول وغياب تام في المحبوب وهو : " وجه من وجوه البقاء في
حقيقته ، فالصوفي يفنى لكي يبقى . وفناؤه هو عين بقائه إنّه يفنى عن ذاته
، ولكن من أجل أن يستعيد الكون بمحملة " (30)

يرى علي حرب أنّ فكرة الفناء تنتسب إلى فكرة "النرفانا" الهندية التي تدلّ
على امّحاء الوجود الذاتي والذوبان في الروح الكلّية السارية في هذا الكون
، لكنّها صيغت بشكل مختلف في فضاء ثقافي إسلامي على نحو يترجم الأبعاد
الروحية والثقافية الإسلامية .

اعتبر مصطلح الفناء أداة مفهومية للتعرف على تجربة الحب ، وقد ورد ذكر
المصطلح في مقامات للدلالة على الارتباط القوي والاتحاد وهو قَمّة اللذة التي
يجدها العاشق والمعشوق وقد عبّر عن هذا المعنى الحلاج في قوله المعروف :
كلّما مسّك شيء مسّني فإذا أنت أنا في كلّ حال

أو قول ابن الفارض :

ما زلتُ إيّاها وإيّايَ لم تزلْ ولا فرق، بل ذاتي لذاتي أحبّت
أسّس الصوفية في خطاباتهم لألوهية الإنسان ، وتشكّل عملية إلغاء هذا
الخطاب ، بدعوى أنّه غير تنويري ، مضادّ للحدّثة والعلم واحدةً من المزالق أيضا
، ولذلك يقترح علي حرب منهجا آخر لمقاربة الموضوع مقارنة غير لاهوتية ولا
ناسوتية أيضا ، إذ الناسوت الوجه الآخر للاهوت بل قراءة كونية أو "شيئانية" ،
قراءة تلغي إمكانية استمرار خطاب تأليه الإنسان لذاته وبأنّ الكون فقط وجد
له هو دون الكائنات والمخلوقات الأخرى وهو ما يشكّل انفتاح الخطاب على
الوجود كلّه والاعتراف بحقّ "الآخر".

يبقى في الأخير أن نقول بأنّ موضوع التصوف من القضايا الإشكالية في باب
التصوف ذاته ، سواء في تعريفه أو البحث في مفاهيمه ومصطلحاته ، ولكنّ
فضيلة القراءة التأويلية التي قام بها علي حرب أنّها لا تبقى على التصوّف بعيدا
عن المتناول بل تقرّب خطابه من الواقع العربي وقضاياه المتعددة ومن هنا يتحوّل
إلى مفاعل حقيقي ، يساعدنا على فهم بعض الإشكالات السياسية والثقافية
التي أفرزتها الثقافة العربية في علاقتها بالتراث من جهة وفي ثقافتها وتعالقها
بالحدّثة الغربية من جهة أخرى .

كما أنّ الرابطة قوية بين التصوّف والتفلسف ، من خلال سؤال الخلود والحقيقة
كما أنّ التأمل في تاريخ الفلسفة يفضي بنا إلى القول أن التصوف ليس حكرا
على المتديّن بل هو باب مفتوح يمكن أن يكون طريقا لكل عالم أو عارف أو
صوفيّ كما إنّ التعارض القائم بين الإيمان بالحقيقة المطلقة الأبدية وبين الإيمان
بالمبدأ الطبيعي يمكن في الواقع تذليله والتهوين منه .

كما يشكّل التصوّف بمعناه الرحب ، روضة لالتقاء المعتقدات والديانات
المختلفة ، إذ يمكن إحصاء أنماط مختلفة من التصوّف:
اليهودي، الإسلامي، المسيحي، الهندوسي ، البوذي وطائفة الزان التي ظهرت في

اليابان والتصوّف اللامنتمي (اللا ديني) وإذا كانت ثمّة اختلافات جوهرية في الأصول فإنّ هناك أكثر من عنصر تشترك فيه هذه الاتجاهات المختلفة (31)

المصادر والمراجع:

- 1- علي حرب: الإنسان الأدنى / أمراض الدين وأعطال الحداثة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2010
 - 2- المصدر السابق، ص27
 - 3- علي حرب: التّأويل والحقيقة ، قراءات تأويلية في الثقافة العربية ، دار التنوير، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 2007 ، ص23
 - 4- علي حرب: الحبّ والفناء: المرأة السكينة العداوة ، الدار العربية للعلوم (لبنان) ، منشورات الاختلاف (الجزائر) ، ط2 ، 2009
 - 5- علي حرب: الحبّ والفناء، ص173
 - 6- المصدر نفسه ، ص183
 - 7- المصدر نفسه، ص27
 - 8- المصدر نفسه، ص28
 - 9- المصدر نفسه، ص31
 - 10- المصدر نفسه، ص33
 - 11- المصدر نفسه ، ص35
 - 12- المصدر نفسه، ص57
 - 13- عبد الرحمان الأنصاري القيرواني: مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب تحقيق: هريثر، دار صادر، بيروت ، لبنان (د.ت)، ص33، 56
 - 14- علي حرب: الحب والفناء، ص79
- ينظر أيضا عبد الرحمان بدوي :رابعة العدوية ، شهيدة العشق الالهي ، وكالة المطبوعات ، الكويت 1978

- 15- علي حرب : الحبّ والفناء، ص80
- 16- المصدر نفسه ، ص81
- 17، المصدر نفسه، ص81
- 18- المصدر نفسه، ص81
- 19- المصدر نفسه ، ص82
- 20- المصدر نفسه ، ص82
- 21- المصدر نفسه ، ص82
- 22- المصدر نفسه ، ص83
- 23- المصدر نفسه ، ص84
- 24- المصدر نفسه ، ص85
- 25- المصدر نفسه ، ص85
- 26- المصدر نفسه ، ص95
- 27- المصدر نفسه، 96
- 28- المصدر نفسه ، ص98
- 29- المصدر نفسه ، ص105
- 30- المصدر نفسه ، ص129
- 31- ولتر ستيس : التصوّف والفلسفة ، تر:إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي ، القاهرة (د.ت) ، ص8